

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢٢)

معرفتنا بوجودنا حدسية أو بالعلم الحضورى!

وكذلك نجد الباحث يقول: مستعيناً بنصوص عبارات لوك: (فيعتقد لوك أن معرفتنا بوجودنا الخاص حدسية، "لأننا ندركه بدرجة من الوضوح واليقين بحيث لا يحتاج إلى برهان بل ولا يقبل البرهان. وأنه لا شيء بين^(١) إلينا عن وجودنا الخاص"^(٢)) وهكذا ندرك وجودنا الخاص مباشرة، لأن كل عمليات العقل كالإدراك والتفكير والشك والشعور بالألم – تتضمن وجود شيء هو موضوع هذه العمليات، "ففي كل عملية إحساس أو استدلال أو تفكير نشعر بوجودنا الخاص. وفي هذه الحالة نصل إلى أقصى درجات اليقين في المعرفة"^(٣)(٤)

ومن الواضح ان إدراك وجودنا الخاص وعمليات عقلنا هي التي اعتبرها بعض الفلاسفة علماً حضورياً واعتبرها البعض فطرياً وقد اذعن بها لوك لكنه سماها معرفة حدسية! هذا.

إضافة إلى استدلاله بـ(كل عمليات العقل كالإدراك والتفكير والشك والشعور بالألم – تتضمن وجود شيء هو موضوع هذه العمليات) هو استدلال بالبرهان المنطقي على ما هو معلوم بالعلم الحضورى! وهو استدلال بالبرهان المنطقي من الشكل الأول على المعرفة الحدسية التي اعتبرها معرفة مباشرة، وهل تحتاج المعرفة المباشرة إلى برهان؟ خاصة وان صرح بـ(لأننا ندركه بدرجة من الوضوح واليقين بحيث لا يحتاج إلى برهان بل ولا يقبل البرهان)!

كما نجده يقول (ثانياً: ان أفكارنا المركبة – ما عدا أفكارنا عن الجواهر – أي الأحوال والعلاقات تطابق موضوعاتها، لأنها نماذج من صنع العقل ذاته ولم يكن القصد منها أن تكون نسخاً لأشياء، ولا أن تشير إلى أشياء تعتبر أصولها، ولذلك فلا تفتقر إلى المطابقة الضرورية للمعرفة الحقيقية، فإن ما لم يقصد به أن يمثل شيئاً عدا ذاته، لا يمكن أن يطابق شيئاً آخر، بل ولا يمكن أن يضللنا^(٥) إلى فهم حقيقي لأي شيء بسبب ما بينهما من اختلاف^(٦)). ولذلك فهي حقيقية.

وكل أفكارنا عن الحقائق الرياضية والأخلاقية هي من هذا النوع. ففكرتنا عن الحقيقة الرياضية أن زوايا المثلث الداخلية تساوي قائمتين حقيقية تطابق النموذج الموجود عن المثلث في العقل رغم أنها قد لا تشير إلى أي مثلث في الواقع^(٧).

هل يعقل ان تغير التسمية موانع المعرفة والقمامة في طرقها؟

ان هذه الحقائق الرياضية والأخلاقية هي التي قال عنها جمهور الفلاسفة: انها إدراكات للعقل واكتشافات له فيما اعتبرها لوك

(١) لعلّ الصحيح (أبين إلينا من وجودنا الخاص).

(٢) Ibid.IV. ٩. ٣٠،p.٢٥٨.

(٣) Ibid.IV. ٩. ٣٠،p.٢٥٨.

(٤) الفلسفة الحديثة ص١٧٦-١٧٧.

(٥) لعلّ الصحيح: يوصلنا.

(٦) Ibid.IV. ٤. ٤٠،p.٢٥٤.

(٧) الفلسفة الحديثة: ص١٧٩.

مصنوعات للعقل ومخلوقات له، وهل بذلك يحقق لوك غرضه وهدفه الأسمى من فلسفته ومن كتابه (مقالة في الفهم البشري) والذي هو (إزالة القمامة Rubbish التي تقف في طريق المعرفة)؟

وكيف يؤثر العدول عن (الإدراك) إلى (الخالقية وصناعية العقل) أو عن (الفطرية) إلى (الحدسية) في إزالة العائق المنهجي الذي عبر عنه بـ(وأما العوائق المنهجية فبعضها يقوم في الاعتقاد بأن في العقل قواعد أو مبادئ أساسية فطرية قبلية يمكن أن تستخلص منها المعرفة كلها)؟

هل قال أحد بان المعرفة كلها في القياس؟

ولم أجد - في حدود استقراي - فيلسوفاً أو مفكراً أو عالماً يقول بان في العقل قواعد أساسية يمكن استخلاص المعرفة كلها منها، ولعل لوك خلط بين هذا المدعى الذي استبعد ان يقول به حكيم وبين ما يقول به المتكلمون والفلاسفة من ان المعارف كلها - الحاصلة بالتجربة وغيرها - تبني أسسها على المعارف الفطرية مثل قانون التناقض والهوية وغيرها، بمعنى ان من لم يؤمن بهذين القانونين وشبههما لا يمكنه ان يصل إلى معرفة حسية أو غيرها أبداً؛ إذ حتى لو جرب النار فأحرقته يده فانه مادام لا يعترف بهذين القانونين فان له ان يقول (النار محرقة وليست محرقة في آن واحد) و(ان النار لا يعلم انها نار والحرارة لا يعلم - أو ليست - حرارة) وهكذا! هذا. إضافة إلى اني - في حدود معرفتي بآراء مشاهير المناطق والفلاسفة - لم أجد من يقول بان القياس هو الطريق الصحيح والوحيد لاكتساب المعرفة؛ إذ من المعروف منطقياً ان الطرق ثلاثة هي القياس، الاستقراء، والتمثيل إضافة إلى أدلة أخرى مثل عكس النقيض والعكس المستوي.

(ويقول لوك: وحين تمتد أبحاث الناس إلى ما هو فوق متناول قواهم ويتركون العنان لأفكارهم تحوم في تلك الأعماق التي لا يستطيعون أن يجدوا فيها مستقراً فلا عجب أن أثاروا تساؤلات ومناقشات لا حل لها ولا تؤدي إلا إلى تثبيت شكوكهم وزيادتها وتدفع بهم في الآخر إلى الشك المطلق. وعليه ينبغي أن نعيّن للمعرفة البشرية حدوداً لا يجوز أن تتجاوزها، وإلا تناولنا حلّ ما لا يستطيع العقل البشري بطبيعته حلّه وضاعت جهودنا سدى. فإذا تيسر لنا أن نعرف مدى ما يستطيع أن يمتد إليه العقل البشري وما للعقل من قوى للوصول إلى اليقين، استطعنا أن نعلم ما هو في متناول إدراكنا وما هو ليس في متناوله، وعندئذ نتحاشى صرف جهودنا العقلية فيما لا طائل وراءه ولا فائدة ترجى منه.

وعليه نستطيع ان نقول أن هدف لوك الرئيسي في: مقالة في الفهم البشري، كان عملياً وفعالاً.. وهو تعيين حدود المعرفة البشرية لكي ننظم حياتنا وأبحاثنا على نحو يتفق مع ما لدينا من قوى وإمكانيات، وحتى لا نبدد جهودنا في البحث عن أشياء تستعصي على عقولنا معرفتها)^(٨).

ولم نجد في تغيير لوك الفطرة إلى الحدس أو تغييره الإدراك إلى خالقية العقل وصانعيته وشبه ذلك، أية مدخلية لتحقيق الهدفين الذين سعى لهما وهما:

أ- (إذا تيسر لنا أن نعرف مدى ما يستطيع أن يمتد إليه العقل البشري وما للعقل من قوى للوصول إلى الحقيقة، استطعنا ان نعلم ما هو في متناول إدراكنا وما ليس في متناوله، وعندئذ نتحاشى صرف جهودنا العقلية فيما لا طائل وراءه ولا فائدة ترجى منه)

ب- (وعليه نستطيع ان نقول أن هدف لوك الرئيسي في: مقالة في الفهم البشري، كان عملياً وفعالاً.. وهو تعيين حدود المعرفة البشرية لكي ننظم حياتنا وأبحاثنا على نحو يتفق مع ما لدينا من قوى وإمكانيات، وحتى لا نبدد جهودنا في البحث عن أشياء تستعصي على عقولنا معرفتها) إذ ما الفرق بين ان تدعن بكل الفطريات لكن بعد ان نسميها تارة حدسيات وأخرى مصنوعات للعقل

(٨) الفلسفة الحديثة ص ١٥٤.

وثالثة افتراضات؟.

واما في الفلسفة الإسلامية فان الطرق إلى المعرفة متعددة متنوعة فمنها القياس المنطقي^(٩) ومنها الاستقراء، ومنها التجربة، ومنها الإلهام الإلهي الصادق.

وقد أشارت الآيات والروايات إلى هذه العناوين وغيرها ومنها: قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١٠) (تبيين الحق) كان عن طريق المشاهدة والتجربة بالنسبة إلى ما في الآفاق، وعن طريق الاستنباط والعلم الحضوري — ربما — بالنسبة إلى النفس.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فطريق التفقه هو التعلم والحدس والاستنباط والاجتهاد، كما فصناه في كتاب (مبادئ الاستنباط).

ومنها: قوله ﷺ: «وَسِرُّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ فَاَنْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا»^(١١)

ومنها: قوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(١٢)

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(١٣) ...

والبحث حول هذه الآيات والروايات ونظائرها يستدعي كتابة كتاب مستقل.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

(٩) وليس القياس الفقهي — الأصولي المعروف المردوع عنه شرعاً بالروايات المتواترة.

(١٠) فصلت: ٥٣.

(١١) نهج البلاغة / صبحي صالح / ص ٣٩٢.

(١٢) عوالي اللقالي ج ٤ ص ١٠٢.

(١٣) مرتب: ٧٦.